

الأصول والمرجعيات الفلسفية والسميائية واللسانية للتداولية.
The Philosophical, Semiotic, and Linguistic Origins and References of
Pragmatics.

* د. فريد زغلامي

Dr. Zoghلامي Farid

جامعة العربي بن مهيدي - أم البواقي.

University of L'arbi ben Mhidi – Oum El Bouaghi/ Algeria

farid.zoghلامي@univ-oeb.dz

تاريخ النشر: 2024/03/02	تاريخ القبول: 2024/01/11	تاريخ الإرسال: 2023/08/07
-------------------------	--------------------------	---------------------------

ملخص البحث

لا يخفى أن الاتجاهات اللسانية، على اختلافها وتعددتها، تقوم في أصلها على مرجعيات لغوية، فلسفية، تاريخية ودينية ...، ولا يوجد اتجاه أو مذهب يقوم على فراغ أو بالاعتماد على نفسه؛ فالمرجعيات، وخاصة الفلسفية منها، تشكل أرضية تقم عليها هذه التيارات والمدارس وجودها. يهدف هذا البحث إلى الوقوف على أهم المرجعيات الفلسفية والسميائية واللسانية التي استندت إليها التداولية في بناء تصورهما ونظرتها إلى اللغة في تفاعلها مع السياق الخطابي؛ مستعينا للوصول إلى هذه الغاية بإجراءات الاستقراء والوصف والتحليل. ولعل أهم ما توصلت إليه هذه الدراسة: ثراء وتنوع الخلفيات والمداخل التي أطرت ميلاد اللسانيات التداولية؛ مما أهلها لتحليل النصوص والخطابات المختلفة. الكلمات المفتاح : مرجعيات، تداولية، أفعال كلام، وظيفية، ملفوظية، لغة عادية.

Abstract :

It's not secret that the linguistic trends, despite their diversity and multiplicity, are based in their origin on linguistic, philosophical, historical, and religious references. There is no trend or school that relies on itself or on a vacuum. The references, especially the philosophical ones, form the ground on which these currents and schools establish their existence.

This research aims to stand on the most important philosophical, semiotic, and linguistic reference on which pragmatics relied in building its

* د. فريد زغلامي farid.zoghلامي@univ-oeb.dz

concept and its view of language in its interaction with the rhetorical context, we sought to reach this and by the procedures of description extrapolation and analysis speeches and deferent text.

Keywords: Referential, Pragmatic, speech acts, functional, Enonciation, ordinary language.



مقدمة:

تعد التداولية (Pragmatics) من بين النظريات اللسانية المعاصرة التي اعتنت بالكلام، الذي كان محمّشا في اللسانيات البنيوية التي اهتمت باللسان، وهذا التحول لم يكن ناشئا من فراغ، بل امتح من منابع متعددة منها ما هو فلسفي وما هو سيميائي وما هو لساني وغيره.

يرون هذا البحث بسط أهم الخلفيات التي أسهمت في ظهور اللسانيات التداولية، وكان لها أثر واضح في تعدد قضاياها واتساع رقعة ممارستها؛ لذلك ينطلق هذا البحث من إشكالية محورية يمكن صياغتها على الشكل الآتي: ما هي أبرز المرجعيات الفلسفية والسيميائية واللسانية التي أثرت في ميلاد اللسانيات التداولية وبلورة مفاهيمها وقضاياها؟

وللاجابة عن هذه الإشكالية تطرق البحث إلى العناصر الآتية: مفهوم التداولية، المرجعيات الفلسفية للتداولية ممثلة في: الفلسفة الإغريقية، النفعية، التحليلية، الكانطية، فلسفة اللغة العادية، ونظرية أفعال الكلام ثم المرجعيات السيميائية التي تجسدت في ما قدّمه كل من "شارل سندرس بيرس" (Ch. S. Peirce) و"شارل ويليام موريس" (Ch.W. Morris)، أما المرجعيات اللسانية فقد خصصت للحديث عن النظرية الوظيفية ثم الملفوظية وأخيرا لسانيات النص.

أولا/ مفهوم التداولية:

أ/ لغة:

التداولية ترجمة للكلمة الفرنسية (Pragmatique) أو الإنجليزية (Pragmatics)، ويرجع كل منها إلى "اللفظ اليوناني (pragma) الذي يعني الفعل أو الحدث (Action)"¹، ويعود هذان اللفظان إلى "الكلمة اللاتينية (Pragmaticus) والتي استعملت حوالي سنة 1438م"².

ويظهر أن أول استعمال لهذه الكلمة كان في المجال القانوني؛ وذلك في عبارة "الجزاء البراغماتي" (pragmatique sanction) والتي تعني "المرسوم أو المنشور الذي يهدف إلى تسوية قضية هامة، باقتراح الحلول العلمية في الوقت نفسه"³، ثم ذاع هذا المصطلح فيما بعد ليدل على كل إنجاز عملي، وأصبح لهذا المفهوم استعمالات عديدة في مجالات مختلفة (فلسفية، اجتماعية، نفسية، لسانية، سيميائية...).

وقد تُرجم مصطلح (Pragmatique) أو (Pragmatics) في الثقافة العربية، مثل عادة المصطلحات الوافدة من الثقافة الغربية، إلى عدة ترجمات من بينها "الذرائعية، والتداولية، والبرغماتية، والوظيفية، والاستعمالية، والتخاطبية، والتبادلية، ..." ⁴، وأيضاً السياقية والنفعية وغيرها. غير أن المصطلح الشائع بين الدارسين والأكثر استعمالاً ودوراناً هو مصطلح "تداولية"؛ وذلك منذ أن استخدمه "طه عبد الرحمن" في سبعينيات القرن الماضي؛ وفي هذا يقول: "وقع اختيارنا منذ 1970 على مصطلح "التداوليات" مقابل المصطلح الغربي "براغماتيقا"؛ لأنه يوفي المطلوب حقه، باعتبار دلالاته على معني "الاستعمال" و"التفاعل معاً". ولقي منذ ذلك الحين قبولا من لدن الدارسين الذين أخذوا يدرجونه في أبحاثهم" ⁵.

وتشير كلمة "تداول" التي تعود إلى الجذر اللغوي "دَوَّلَ"، إلى الانتقال والتحول من مكان إلى مكان أو من حال إلى آخر. ورد في القرآن الكريم: "إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُذُلُهَا يَوْمَئِذٍ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذُ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ" (سورة آل عمران، الآية 140)، قال "الزمخشري" في "الكشاف": "... ندولها نصرها بين الناس. ندبل تارة لهؤلاء وتارة لهؤلاء" ⁶؛ أي مرة لهم ومرة عليهم. وجاء في "لسان العرب" لـ "ابن منظور" "تداولنا الأمر: أخذناه بالذَّوْل... ودالت الأيام أي دارت، والله يُدَوِّلُها بين الناس. وتداولته الأيدي: أخذته هذه مرة وهذه مرة" ⁷، ومن هنا فالتداول يعني أيضاً التعاون والتفاعل والتبادل. وهذا هو حال اللغة أثناء الاستعمال، فهي تنتقل بين أقطاب الحديث، فيصبح المتكلم سامعاً، والسامع متكلماً. ولما كانت اللسانيات الحديثة قد أناطت نفسها بوظيفة وصف اللغة، صار لزاماً عليها وصف المظهر الطبيعي لهذه اللغة؛ أي مقارنة الظاهرة اللغوية حال تداولها واستعمالها والتواصل بها.

ب/ اصطلاحاً: للتداولية تعريفات عديدة نذكر منها:

1/ إن أقدم تحديد للتداولية يعود إلى السيميائي "ش. و. موريس" حيث عرّفها سنة 1938م على أنها "فرع من فروع السيميائية يهتم بدراسة علاقة العلامات بمستعملها ومؤولها" ⁸؛ أي دراسة علاقة العلامات بالنطاقين بها وبالمتلقين لها.

2/ وتعرّفها كذلك "إليزابيث بلاك" (Elizabeth Black) على أنها "دراسة اللغة في السياق" ⁹؛ أي دراسة اللغة أثناء عملية التواصل.

3/ ويحددها أيضاً كل من "جاك موشلر" (Jacques Moeschler) و"آن ريبول" (Anne Reboul) في موسوعتها التداولية بوصفها "دراسة استعمال اللغة مقابل دراسة النظام اللساني الذي تعني به تحديداً اللسانيات" ¹⁰، فالتداولية اهتمت بدراسة الكلام والاستعمال اللغوي الذي أهملته وأبعدته اللسانيات البنيوية.

وبناء على ما تقدم فإن التداولية جزء من علم العلامات تُعنى بدراسة اللغة الإنسانية في موردتها الطبيعي؛ أي أثناء عملية الاستعمال والتواصل وربطها بسياقها التداولي، حيث يتعذر تفسير الظاهرة اللسانية انطلاقاً من القواعد اللغوية وحدها، بل لابد من أخذ السياق ومعطياته بعين الاعتبار في تحليل هذه الظاهرة.

ثانيا: أصول التداولية وخلفياتها:

أ) المرجعيات الفلسفية:

ينبغي الإشارة بداية إلى أن المتبع للدراسات اللغوية عموما يجدها ناشئة غالبا في الحقل الفلسفي أو الديني، على اختلاف توجهاته، وتلك كانت ميزة الدرس اللغوي قبل "فردينان دي سوسير" (Ferdinand De Saussure). وبعد مسيرة الاتجاهات البنيوية المختلفة، وربما خلالها، تعود اللسانيات في منتصف القرن العشرين لتستند إلى الدرس الفلسفي ومقولاته، وصار للفلسفة الحديثة أكثر من اتصال بالدراسات اللغوية؛ مما جعلها أحد المصادر الهامة لتطور اللسانيات الحديثة، وهو ما حدث مع التداولية. ومن بين الفلسفات التي أثرت في ميلاد التداولية نجد:

أ-1) الفلسفة الإغريقية:

اهتمت الفلسفة باللغة منذ القدم، وبحث العلاقة بين اللغة والواقع (السياق)، ودرست الحجاج والخطابة، وأثر الخطاب في السامع وغيرها من الأغراض البلاغية. وقد طوّر الفلاسفة اليونان منذ "أفلاطون" و"أرسطو" منوالا كلاسيكيا للبلاغة يقوم على معرفة انفعالات المتلقي ومواقفه، كما يقوم على دراسة علاقة الكلام بالواقع والسياق، حيث وظّف "أرسطو" كثيرا من المفاهيم التداولية في دراسة الأشكال اللغوية في عصره من مثل: فن التأثير في السامع، العلاقة بين أنواع الملفوظات ومقاماتها العلمية أو القانونية أو السياسية¹¹. وقد أثرت هذه الأفكار في الاتجاهات الحديثة المؤسسة للتداولية، والتي قامت على ضرورة العناية باللغة في علاقتها بالمتكلم والمتلقي والسياق الذي يدور فيه الخطاب، بالإضافة إلى مبحث الحجاج الذي هو ثمرة الجدل الذي خصه "أرسطو" بعناية فائقة في كتابه الخطابة. وقد وقت "فرانسواز أرمينكو" في نهاية كتابها "المقاربة التداولية" على أثر "أرسطو" في التداولية من خلال مشجر يجسد تلك الصلة التي تتبدى في أعمال "بيرلمان" مع البلاغة الجديدة، و"أبوستل" في التداولية الإجرائية ثم دراسات "ديكرو" و"أنسكومبر" في الحجاج و"كربرات أوريكيوني" في التضمين و"مير" في الإشكالياتية¹².

أ-2) الفلسفة البراغماتية/ النفعية أو النرائعية:

البراغماتية مذهب فلسفي أمريكي يعتبر نجاح العمل المعيار الوحيد للحقيقة، رابطا بين النظرية والتطبيق. وقد نشأت في الولايات المتحدة الأمريكية، وكان "شارل سندررس بيرس" أول من استخدم مصطلح "براغماتية" في العصر الحديث، حيث نشر مقالا سنة 1905م بعنوان "ما البراغماتية؟" عرض فيه لمفهوم البراغماتية وأبعادها المعرفية، مشيرا إلى أن تصورنا لشيء ما هو تصورنا لما ينتج عنه من ثمار تطبيقية¹³؛ أي ما يمكن أن ينتج عن هذا الشيء من آثار عملية ملموسة.

وقد تطورت البراغماتية في القرن العشرين مع "وليام جيمس" (William James) الذي اهتم بالجانب المنفعي والمصلحي حيث ربط الفكرة بطابعها المنفعي في الواقع؛ وفي ذلك يقول: "إن الأفكار تصبح

صادقة بقدر ما تساعدنا على أن نربطها بأجزاء من خبرتنا بطريقة تؤدي إلى سلوك ناجح في الحياة. يضاف إلى ذلك علينا أن نستخرج من كل لفظ قيمته الفورية الفعلية، وأن نضعه موضع العمل في مجال خبرتنا، بحيث تكون قيمة الفكرة مرتبطة بنجاح السلوك الذي يؤديه الإنسان بناء على اعتقاده في صحتها¹⁴، إنها فلسفة تختزل الحقيقة في المنفعة، وصحة الفكرة تعتمد على ما تؤديه من نفع. وسيكون لهذه الفلسفة أثر كبير على قضايا التداولية فيما بعد، خاصة نظرية أفعال التي اهتمت بدراسة ما ينتج عن الفعل القول من آثار عملية، وما يحدثه من تغيير في السلوك الإنساني، ومدى الصدق في محتوى الخطاب ومطابقته للعالم .

أ-3) الفلسفة التحليلية (المنطقية):

طور الفيلسوف الألماني "غوتلوب فريجه" (Gottlob Frege) ثم الفيلسوف البريطاني "برتراند رسل" (Bertrand Russell) النظرية المنطقية في الفلسفة، والتي استهدفت إعادة تأويل الرياضيات باعتماد مبادئ منطقية صرفية، وأول نتيجة لها أنها فصلت الفلسفة التحليلية عن النظريات التي يمكن تسميتها بالتأليفية¹⁵، بالإضافة إلى ذلك فقد أدت أعمال "فريجه" إلى التمييز و"الفصل الواضح للغة العلمية عن اللغة العادية، فالأولى ضرورية في البرهنة الحسابية، ويجب أن تكون أحادية المعنى صريحة، وليس لها من هدف سوى وضع حقيقة، أما اللغة العادية فيجب أن تكون متعددة المعاني كي تتمتع بثراء الممكنات التي تهيم لها تأدية وظائفها التواصلية"¹⁶، فالأولى منطقية بحتة تطابق الحقيقة المعبر عنها، أما الثانية فتتسم بالمجازات والإحالات ولا تطابق الواقع دائما.

في هذا الإطار درس "فريجه" علاقة الملفوظات بالعالم والتفاعل بين المتخاطبين، وإمكانية تمييز النصوص المقبولة عن غيرها. وقد أثرت أفكاره في أعمال فلاسفة اللغة الذين ركزوا على دراسة الاستعمال اللغوي في علاقته بالواقع أمثال: جون أوستن (John Austin) وجون سيرل (John Searle) اللذان درسا الفعل الكلامي في علاقته بالعالم/الواقع من حيث مطابقة الخطاب للعالم من عدمه، والأثر الذي يحدثه الفعل الكلامي في المتلقين، فيما وسم بـ "الفعل الناتج عن القول أو الفعل التأثيري" الذي يحصل حينما يغير الفعل الإنجاري من حال المتلقي.

أ-4) الفلسفة الكانطية:

عمل الفيلسوف الألماني "إيمانويل كانط" (Immanuel Kant) في فلسفته المتعالية* على عرض العناصر المكونة للمعرفة والتمثل الإنسانيين، وبما أن كل ما يفكر فيه يمكن أن يقال، فقد ذهب كانط إلى أن تحليل صلات المتكلم باللغة يجب أن تساهم في تحليل ما يقوله المتكلم.

إن لفظ (Pragmatisch) الذي استعمله "كانط" في كتابه "تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق" ليس بعيدا عن استعمال لفظ "التداولية" الذي نجده عند التداوليين، بل إن "بيرس" صرح أنه استعار المصطلح من "كانط" الذي حدد مفهوم هذا المصطلح بناء على أن قيمة الشيء تتعين انطلاقا مما يترك من آثار ملموسة

أو منفعة متحققة. وسيتابع المنظور الكانطي كل من "ك. آبل" و "يورغن هيرماس"، بشكل متأثر بالفلسفة الماركسية، في نطاق ما عُرف بمدرسة فرانكفورت.¹⁷

ومن هنا يكون "كانط" قد فتح كوة ستخرج منها لاحقا قضايا عدة مرتبطة بالتداولية على رأسها ضرورة مراعاة السياق في تحليل اللغة، وربط قيمة الفعل الكلامي بالمكاسب التي يحققها في الواقع، والتبعات المترتبة عن إنجازها كما بسطتها نظرية أفعال الكلام منذ "جون أوستن".

أ- (5) فلسفة اللغة العادية عند لودفيغ فيتغنشتين:

تأثر "لودفيغ فيتغنشتين" (Ludwig Wittgenstein) بما جاء به "غوتلوب فريجه"، وتجمع بينهما مسلمة مشتركة وهي أن فهم الإنسان لذاته ولعالمه يرتكز في المقام الأول على اللغة، فهي التي تعبر له عن هذا الفهم.¹⁸

يطلق على فلسفة "فيتغنشتين" فلسفة اللغة العادية، وهي التي نشأت بين أحضانها ظاهرة الأفعال الكلامية؛ إذ عقب سنة 1930م ترك "فيتغنشتين" تحليل البنية المنطقية للغة العلمية ليهتم باللغة العادية ولتحقيق هذه الغاية، تمسك بموقف نسبي يجعل محمة الفلسفة وصف الاستعمال الشائع للغة، ودراسة حالات ورودها؛¹⁹ أي وصف اللغة الطبيعية المستعملة من قبل أشخاص عاديين في الحياة اليومية في علاقتها بالمتكلمين والمتلقين والظروف والمقامات والمواقف المتعددة، وهو ما أولته التداولية، وخاصة نظرية أفعال الكلام، عناية كبيرة فيما بعد.

واظلافا من ذلك فقد رفض "فيتغنشتين" النظرة التي ترى الفكر منفصلا عن اللغة؛ إذ هما "غير منفصلين، بل يبني أحدهما الآخر، بشكل متبادل، وهما يجريان في تفاعلها إلى غاية واحدة، وهي الغاية التواصلية"²⁰، وبهذا لم تعد اللغة "وسيلة للفهم أو تمثيلا للعالم، بقدر ما هي وسيلة تأثير في الآخرين؛ لارتباطها بالمواقف المحسوسة في التواصل"²¹. ولم تكتسب هذه الفكرة قيمتها التي تستحقها إلا بعد أن تبناها "فلاسفة أكسفورد" ولا سيما ج. أوستن، ثم سيرل من بعده، وقد بدا أثر فيتغنشتين عليه واضحا في كتابه "كيف تُصنع الأشياء بالكلمات" وتلميذه ج. سيرل في استلهامه لبعض أفكار هذا الفيلسوف واتخاذها معايير وأساسا في دراسة الأفعال الإنجازية وتحليل مكوناتها وتصنيفها"²²، كما كان لهذه الرؤية أثر في توجيه الأنظار إلى العناية بـ"الحجاج"، الذي يعد مبحثا أساسيا من مباحث التداولية، والذي يفترض طرفي تواصل يهدف أحدهما إلى التأثير في الآخر بطريقة ما حملا له على تعديل رأي أو سلوك أو صرف النظر عن شيء ما.

وعرض في هذا الإطار فكرة "ألعاب اللغة" التي تعني أن "الأفعال التي نلفظها ترتبط بأشكال الحياة والممارسات التي نحيها؛ أي أنه ينحصر فيما يباح للمتكلمين في إطار العلاقة بينهم وبين عباراتهم، وينبج عن اختيارات مباحة داخل تنظيم الخطاب، كونه مجموعة منظمة من وجهات النظر والممارسات والمصالح"²³، فلعبة اللغة، حسبه، مثلها مثل باقي الألعاب كلعبة الشطرنج أو غيرها، وكما أن لكل لعبة قواعد لا بد من مراعاتها؛ فإن لكل لغة قواعد، فإذا خالفنا هذه القواعد تفسد اللغة ولا يعود لها معنى، مثلها مثل اللعبة؛ ولذا رأى

فيتغنشتين أنه "لا وجود للغة خاصة بالفرد، وإنما كل ما في الأمر أن الفرد يتبع في تراكيب لغته عموم مجتمعه"²⁴، فاللغة صورة من صور الحياة، ويتحدد معنى لكل رمز لغوي في هذه الحياة بالاستعمال الذي نلجأ إليه، فلا حياة للعلامات اللغوية بعيدا عن استعمالها؛ لذا صرفت التداولية وكدها إلى دراسة اللغة في الاستعمال.

أ-6) نظرية أفعال الكلام عند جون أوستن:

تعد نظرية "أفعال الكلام" التي تنسب إلى اللغوي "جون أوستن" من أهم أسس التداولية ومرجعياتها؛ حيث ذهب إلى أن اللغة ليست مجرد وصف للعالم وتمثيل له بقدر ما هي إنجاز لأفعال وتوقيع لأعمال. وإذا كان فضل تأسيس هذه النظرية وإخراجها إلى الوجود ينسب إلى "أوستن"؛ فإن لتلميذه "جون سيرل" دورا لا ينكر في إعادة قراءة نظرية أستاذه ونقدها وتطويرها.

غرف "جون أوستن" من خلال محاضراته في فلسفة اللغة التي قدّمها بجامعة "هارفارد" في عام 1955م في فلسفة اللغة، ونشرت في سنة 1962م بعد وفاته، بعنوان "كيف ننجز أفعالا بالألفاظ" (How to do things with words)، ومما جاء فيها أنه ساوى بين بنية اللغة وبنية الفكر، وجعلها شيئا واحدا، على غرار ما قام به سلفه "لودفيغ فيتغنشتين" في دراسته للغة العادية، كما أن اللغة في مفهومه تتجاوز وظيفة الاتصال إلى وظيفة التأثير، وتغيير السلوك الإنساني،²⁵.

وقد أدخل "أوستن" في سلسلة محاضراته المخصصة للفلسفة مفهومين سيصبح محوريا في التداولية، وهو مفهوم "فعل الكلام"، مدافعا بذلك عن الفكرة القائلة بأن اللغة في التواصل ليس لها أساسا وظيفية وصفية، بل لها وظيفة عملية²⁶.

وخلاصة فكرته في ذلك أن كل قول ملفوظ يعد عملا، ويميّز بين نوعين من الملفوظات؛ الملفوظات الثابتة (التقريرية)، والتي تمثل حالات الأشياء، وهي قابلة لأن تكون حقيقة أو خاطئة، والملفوظات الإنجازية وترتبط بشروط تحقيقها، التي تحملها حال النطق بها، وبمساعدة بعض الشروط الظرفية الأخرى، نحو: أعلن عن افتتاح الجلسة، وبذلك فهو يعارض مبدأ الصدق والكذب الذي يحكم الجملة عموما لدى المنطقة؛ ففي المثال السابق كأن المتكلم يوجه سامعيه أو يأمرهم بقوله "باشروا الجلسة" أو كأن يدخل أحدهم دون أن يغلق الباب، فيخاطبه آخر قائلا (تركت الباب مفتوحا)، فينصرف الداخل إلى إغلاقه وكأنه تلقى أمرا بذلك²⁷.

وفي كلا النوعين لا يمكن وصف اللغة إلا من خلال ظروف استعمالها؛ ففي حالة الملفوظات الخبرية طور الدارسون المبحث المرجعي، وفي حال الملفوظات الأدائية/ الإنجازية تطورت نظرية الأفعال الكلامية، وكلاهما من أهم فضايا اللسانيات التداولية.

غير أن "أوستن" لاحظ أن الفصل بين الملفوظات الإخبارية والإنشائية ليست بالبساطة التي اعتقدها في البداية، فخرّجه ذلك إلى رفض المقابلة التي أقامها بين النوعين السابقين، وهو ما خلص من خلاله إلى

أن كل جملة تامة مستعملة تقابل إنجاز عمل لغوي واحد على الأقل. من هنا راح يميز بين ثلاثة أنواع من الأفعال الكلامية²⁸:

أ-6-1) فعل الكلام (locutionary Act): يراد به الفعل الذي يتحقق ما إن نلفظ بشيء ما، أو هو فعل التكلم بشيء ما؛ أي إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات بناء نحوي سليم وذات دلالة.

أ-6-2) قوة فعل الكلام/ الفعل المتضمن في القول/ القوة الإنجازية (illocutionary Act): وهو الفعل الإنجازي الحقيقي، ويقصد به إنجاز فعل في حال قول شيء ما مع مراعاة مقتضى المقام.

أ-6-3) لازم فعل الكلام/ الفعل الناتج عن القول أو فعل التأثير بالقول (perlocutionary Acts): وهو الفعل الذي يتحقق نتيجة قولنا شيئاً ما، ويحصل مثلاً حين يغير الفعل الإنجازي من حال المتلقي بالتأثير عليه، كأن (يجعله يفعل، يقنعه، يرشده، يثبطه...).

ثم ميز "جون أوستن" في محاضراته الأخيرة (أصناف قوة فعل الكلام) بين خمسة أفعال كلامية يتخذها العمل أو الفعل المتضمن في القول، وتتمثل في²⁹: القرارات التشريعية/الحكميات (Verdictives)، المراسات التشريعية/ التنفيذيات (Exersitives)، ضروب الإباحة/ الوعديات (Commissives)، الأوضاع السلوكية/ السلوكيات (Behabitives)، المعروضات الموصوفة/ العرضيات (Excpositives).

ب) المرجعيات السيميائية:

كانت بداية علم السيمياء أو علم العلامات من ميدان نظرية المعنى، حيث التفت الفلاسفة الأمريكيين إلى دراسة العلامة كأساس لتشكيل المعرفة الإنسانية، وطوروا تصورهم لهذه النظرية في سياق الفلسفة البرغماتية التي كانت واسعة الانتشار عندهم، ومن أهم أعلام السيمياء الذين أسهموا في بناء التداولية:

ب-1) شارل سندرس بيرس (1839-1914م):

يعد "بيرس" المؤسس الأول لعلم السيمياء بعد أن أخذ المصطلح عن الفيلسوف الإنجليزي "جون لوك" (John Locke)، ويعتبر "بيرس" السيمياء أفضل العلوم لاستخدامها العلامات، مؤكداً أن الفكر والعلامة غير منفصلين، فلا توجد علامة في حد ذاتها، ولكن كل شيء يمكن أن يتحول إلى علامة، بل إن الفكر في ذاته يعد علامة يمكن أن يؤولها الآخر.

كما يعتبر "بيرس" أول من وظّف مصطلح "البرغماتية" في الفلسفة المعاصرة، وهو صاحب فكرة وضع العمل مبدئاً في نظرية المعرفة من خلال قوله: "إن تصورنا لموضوع ما، هو تصورنا لما قد ينبج عن هذا الموضوع من آثار عملية"³⁰.

درس "بيرس" المعرفة الإنسانية من خلال تشكيلها في العلامات؛ أي في عمليات الترميز التي تخضع لها الأشياء والتجارب، وأسس بذلك علماً يدرس العلامات من الناحية المنطقية سماه "السيمياء".

اجتمعت فكرة "السيمياء" و"التداولية" عند بيرس لارتباطها الرئيس بالفكر والمعرفة من خلال³¹:

أ) يمثل فعل المعرفة، من جهة، نوعاً من السلوك عندما تتفاعل الذات مع الأشياء والتجارب، وهو أساس المذهب البرغماتي.

ب) لا يحتفظ الذهن، من جهة ثانية، بفعل المعرفة إلا بتحويل التجارب إلى علامات يتم الاحتفاظ بها، وهو ما يسمى بفعل "السمطقة".

ب-2) شارل وليام موريس (1901-1979م):

هو فيلسوف سيمائي أمريكي تأثر بأعمال أستاذه "بيرس" في اتخاذ منظور يلتحق بمنظور "فريجه" و"رسل" بالإضافة إلى "فتغنشتين" في كتاباته المتأخرة، وهو منظور اللغة العادية.

عمل "موريس" تبعاً لذلك على تأسيس النظرية العامة للعلامات، تتوحد فيها المقاربات اللسانية والمنطقية والسيكولوجية والبلاغية، بل حتى الأنثروبولوجية والبيولوجية.

وقد اعتبر التداولية جزءاً من السيمياء عند تمييزه ثلاثة فروع لهذه الأخيرة، وهي علم التراكيب (النحو)، علم الدلالة، التداولية. وتبته إلى أن التداولية تدرس علاقة العلامة بمستعملها، وطريقة توظيفها وأثرها في المتلقين، والظروف والسياقات المحيطة بها. وهذه الدراسة لا تتم، بطبيعة الحال، بمعزل عن البنى النحوية والدلالية والتركيبية للغة المستخدمة³².

وأسس "موريس" نظريته إلى علم السيمياء على أساس سلوكي، وصاغ مجمل أفكاره في كتابه (العلامات واللسان والسلوك)، وعمل على تفسير الظاهرة المعرفية المتجلية في العلامة انطلاقاً من مبدأ (الإثارة والاستجابة)، فأكسب المعرفة لا يكون إلا بالعلامات، وتشكل هذه الأخيرة بفعل اقترانها بالموضوعات والأشياء في العالم، فتتحول العلامات إلى مثير يستدعي صور الموضوعات.

ج) المرجعيات اللسانية:

أسهمت نظريات لسانية عدة في بناء التداولية، حيث درست عناصر عملية التواصل كمؤثرات فاعلة لتشكل الظاهرة اللغوية، نذكر من هذه النظريات:

ج-1) النظرية الوظيفية:

يقترن اسم هذه النظرية بحلقة براغ التي أسسها التشيكي "فيلام ماثيسوس" (Vilem Mathesius) عام 1926م، واشتهرت فيها أعمال "نيكولاي تروبتسكوي" (Nikolai Trubetzkoy) و"رومان جاكسون" (Roman Jakobson)، وقد جمعهم الاهتمام بالتحليل الوظيفي في علم الفونولوجيا. ومن أهم ما جاء به "جاكسون" نظرية وظائف اللغة عام 1948م، ومفادها أن عملية الاتصال تتطلب عناصر أساسية هي: المرسل، المرسل إليه، قناة الاتصال، الرسالة، وشفرة الاتصال، السياق/المرجع³³. ثم استخلص من هذا أن اللغة تؤدي ستة وظائف مختلفة بحسب عناصر الاتصال (تعبيرية، شعرية، إيعازية، مرجعية، انتباهية، ميتالغوية).

وقد كان لهذه النظرية أثر عميق في اللسانيات التداولية؛ لأنها أقيمت على مبادئ علمية دقيقة لوصف استعمال اللغة، وضبطها وشرحها بطريقة موضوعية، كما أنها أعادت الاعتبار إلى عناصر غير لغوية مؤثرة في الأشكال اللغوية المتواصل بها كالسياق أو الوظيفة المرجعية.

ج-2) الملفوظية (نظرية التلفظ):

تعد لسانيات التلفظ من أهم اتجاهات البحث اللغوي التي أسهمت في تأسيس التداولية، ويعود أصلها إلى اللغوي "شارل بالي" (Charles Bally) في كتابه (اللسانيات العامة واللسانيات الفرنسية)، حيث أورد مصطلح تلفظ (Énoncé)، ويقصد به "فعل النطق للبارات والمجل".

ثم جاء من بعده "إميل بنفنيست" (Émile Benveniste) الذي عمّق دراسته حول الملفوظ بوصفها نتاجا لعملية التلفظ، وقد عزف هذه الأخيرة بالقول: "توظيف اللغة من خلال استعمال فردي"، إذ رأى أن التلفظ هو الإطار الطبيعي لتشكيل اللغة، ولا يمكن للسانيات أن تكون علما للظاهرة اللغوية إلا بدراستها في إطارها الطبيعي وهو التلفظ / الاستعمال. ومن أهم الأفكار التي قدّمها "بنفنيست" في لسانيات التلفظ فكرة تصنيف الملفوظات (بحسب معيار الذاتية والموضوعية) إلى خطاب وتاريخ وأيضا فكرة الإحالة أو المرجعية التي قسمها إلى إحالة مطلقة وإحالة مقيدة³⁴.

كما اهتمت الملفوظية بالسياق غير اللغوي في علاقته بتحديد دلالة الملفوظ، وهو من أهم الموضوعات التي اعتنت بها التداولية لاحقا في تركيزها على دراسة اللغة في الاستعمال أو التفاعل.

ج-3) لسانيات النص:

لقد أسهم تطور الدراسة العلمية للنص في بناء اللسانيات التداولية، حيث عرف هذا العلم منذ ظهوره ثلاثة نماذج أساسية في المقاربة النصية³⁵:

(1) المقاربة اللغوية النحوية: وتمثل في البحث عن القرائن اللفظية لتماسك النصوص (الانساق). وتمثلها أبحاث: "زيلينغ هاريس" و"فاينريش".

(2) المقاربة الدلالية: قدّم الدارسون بعد ذلك نماذج دلالية تجمع بين النحو والمعنى في دراسة النص، كأبحاث "فان ديك" حول البنية الكبرى و"غريماس" حول التشاكل.

(3) المقاربة التداولية: لقد لاحظ علماء اللغة بعد ذلك أن تشكل النص في مظهره الطبيعي لا يركن إلى مجرد القرائن اللفظية والعلاقات الدلالية، بل إن تشكله مرهون بعناصر الموقف أو المقام، وتعرف هذه الظاهرة بالتماسك التداولي، ومن أهم نماذج الوصف التداولي للنص دراسة "روبير دي بوغراند" و"فولفغانغ دريسلر" لعناصر أو معايير النصية، ومن بينها: الموقفية، القصديّة، المقبولة وغيرها.

خاتمة:

ختاما يمكن القول: إن التداولية، مثل غيرها من النظريات والمدارس اللسانية، قامت في بناء صرحها المعرفي والإجرائي بالاستناد إلى مجموعة من الأصول والمرجعيات المختلفة: بلاغية، فلسفية، سيميائية، لسانية ... وغيرها، كان لها دور كبير في بلورة البحث التداولي وروز جوانبه؛ مما يشي بتنوعها وثرائها، وإن كان من المتعذر حصر ورصد كل روافد ومنابع التداولية؛ لأنها غدت مرجعيات مختلفة ومتنوعة، غير أن ما وقفت عليه هذه الدراسة يُمثل في نظر عديد من الباحثين أكثر المنابع تأثيرا في ميلاد ونشأة التداولية. وعليه يمكن حصر أهم النتائج المتوصل إليها في النقاط الآتية:

- التداولية فرع من السيميائية تهتم بدراسة اللغة الإنسانية أثناء عملية الاستعمال والتواصل من خلال ربطها بسياق الموقف/المقام.
- اتصلت الفلسفة الحديثة باللسانيات اتصالا وثيقا؛ مما جعلها أحد المصادر المهمة للسانيات التداولية.
- تبدى لبعض الاتجاهات الفلسفية أثر واضح في ميلاد التداولية وبروز العديد من قضاياها، ويجمع بينها الاهتمام بدراسة علاقة الملفوظات بالعالم/الواقع، والنظر إلى اللغة على أنها تتجاوز وظيفة الاتصال وتمثيل ووصف العالم إلى التأثير في الآخرين وتغيير سلوكهم؛ لارتباطها بالمواقف المحسوسة في التواصل، ومن أهم هذه الاتجاهات: الفلسفة الإغريقية، الفلسفة البراغماتية/النفعية، الفلسفة التحليلية/المنطقية، الفلسفة الكانطية، فلسفة اللغة العادية، نظرية أفعال الكلام.
- أثرت السيميائية تأثيرا جليا في ظهور اللسانيات التداولية؛ إذ عدّ "شارل موريس" هذه الأخيرة جزءا وفرعا من السيميائية تدرس علاقة العلامات بمسئولياتها، كما أن "بيرس" هو أول من وظف مصطلح براغماتية في الفلسفة المعاصرة.
- أسهمت نظريات لسانية عدة في بناء صرح التداولية، ومن أهم هذه النظريات: النظرية الوظيفية والملفوظية ولسانيات النص، ويجمع بينها أنها أعادت الاعتبار لسياق الموقف؛ مبينة أثره في تحليل اللغة المتواصل بها.

هوامش:

- ¹ خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، (2012)، ط2، بيت الحكمة للنشر والتوزيع (الجزائر)، ص53.
- ² نوازي سعودي أبو زيد: في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراء، (2009)، ط1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، (الجزائر)، ص18.
- ³ المرجع نفسه، ص18.
- ⁴ جميل حمداوي: التداوليات وتحليل الخطاب، (2015)، ط1، مكتبة المثقف، Almothaqaf.com، ص6.
- ⁵ طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، (2002)، ط2، المركز الثقافي العربي، (المغرب)، (لبنان)، ص28.

- ⁶ جار الله الزمخشري: تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح (خليل مأمون شيحا)، (2009)، ط3، دار المعرفة، (لبنان)، ج4، ص196.
- ⁷ جمال الدين بن مكرم (ابن منظور): لسان العرب، (د.ت)، دار صادر، (لبنان)، مج11، مادة (دول).
- ⁸ عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، (2004)، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، (لبنان)، ص21.
- ⁹ Elizabeth, Black. (2006). Pragmatic Stylistics, Great Britain, Edinburgh University Press , p1(Introdiction).
- ¹⁰ جاك موشلر وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية: تر (عز الدين المجدوب وآخرون)، (2010)، ط1، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، (تونس)، ص21.
- ¹¹ ينظر: رزيق بوزغاية: كتاب التداوليات، (2020)، ط1، نوران للنشر والتوزيع، (الجزائر)، ص73، 74.
- ¹² ينظر: فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر (سعيد علوش)، (1986)، ط1، مركز الإنماء القومي، لبنان، ص89.
- ¹³ رزيق بوزغاية: كتاب التداوليات، ص40، 41.
- ¹⁴ ماجد محمد حسن، "الفلسفة البراجماتية"، الحوار المتمدن، ع 816 تاريخ 2004/4/26 ، موقع الحوار المتمدن على الرابط: <https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=17424>
- ¹⁵ فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر (صابر الحباشة)، (2007)، ط1، دار الحوار، (سوريا)، ص29، 30.
- ¹⁶ المرجع نفسه، ص30.
- ^{*} المتعالي: المعرفة عند الإنسان سابقة على التجربة.
- ¹⁷ المرجع السابق، ص27، 28.
- ¹⁸ مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، (2005)، ط1، دار الطليعة، (لبنان)، ص21.
- ¹⁹ فيليب بلانشيه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر (صابر الحباشة)، ص31.
- ²⁰ المرجع نفسه، ص31.
- ²¹ خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، (2009)، ط1، بيت الحكمة، (الجزائر)، ص42.
- ²² مسعود صحراوي، لحظة ميلاد التداولية (نظرية الأفعال الكلامية)، (2023)، ط1، دار التنوير للنشر والتوزيع، (الجزائر) ودار أزمدة، (الأردن)، ص112.
- ²³ خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص42.
- ²⁴ المرجع نفسه، ص43.
- ²⁵ المرجع نفسه، ص43.
- ²⁶ جاك موشلر وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية، تر (عز الدين المجدوب وآخرون)، ص22.
- ²⁷ خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، ص44.

- ²⁸ ينظر: جون أوستين، نظرية أفعال الكلام، كيف ننجز الأشياء بالكلام، تر(عبد القادر قنيني)، (1991)، د. ط، أفريقيا الشرق، (المغرب)، ص 120 ومابعداها.
- ²⁹ ينظر: المرجع نفسه، ص 174.
- ³⁰ رزيق بوزغاية، كتاب التداوليات، ص 91.
- ³¹ المرجع نفسه، ص 90.
- ³² عيد بلع، "التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس"، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 666، ربيع 2005، ص 36.
- ³³ أحمد عزوز، المدارس اللسانية، أعلامها ومبادئها ومناهج تحليلها للأداء التواصلية، (2014)، ط 1، دار التنوير، (الجزائر)، ص 129، 130.
- ³⁴ جان سيرفوني، الملفوظية، تر(قاسم المقداد)، (1998)، ط 1، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (سوريا)، ص 35، 36.
- ³⁵ رزيق بوزغاية، كتاب التداوليات، ص 98، 99.

قائمة المصادر والمراجع:

- 1- أحمد عزوز، المدارس اللسانية، أعلامها ومبادئها ومناهج تحليلها للأداء التواصلية، (2014)، ط 1، دار التنوير، (الجزائر).
- 2- جار الله الزمخشري: تفسير الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تح(خليل مأمون شيخا)، (2009)، ط 3، دار المعرفة، (لبنان)، ج 4.
- 3- جاك موشرل وآن ريبول، القاموس الموسوعي للتداولية: تر(عز الدين المجذوب وآخرون)، (2010)، ط 1، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، (تونس).
- 4- جان سيرفوني، الملفوظية، تر(قاسم المقداد)، (1998)، ط 1، منشورات اتحاد الكتاب العرب، (سوريا).
- 5- جمال الدين بن مكرم (ابن منظور): لسان العرب، (د.ت)، دار صادر، (لبنان)، مج 11، مادة (دول).
- 6- جميل حمداوي: التداوليات وتحليل الخطاب، (2015)، ط 1، مكتبة المتحقف، Almothaqaf.com.
- 7- جون أوستين، نظرية أفعال الكلام، كيف ننجز الأشياء بالكلام، تر(عبد القادر قنيني)، (1991)، د. ط، أفريقيا الشرق، (المغرب).
- 8- خليفة بوجادي: في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، (2012)، ط 2، بيت الحكمة للنشر والتوزيع (الجزائر).
- 9- خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم، (2009)، ط 1، بيت الحكمة، (الجزائر).
- 10- رزيق بوزغاية: كتاب التداوليات، (2020)، ط 1، نوران للنشر والتوزيع، (الجزائر).
- 11- طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، (2002)، ط 2، المركز الثقافي العربي، (المغرب)، (لبنان).
- 12- عبد الهادي بن ظافر الشهري: استراتيجيات الخطاب، مقارنة لغوية تداولية، (2004)، ط 1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، (لبنان).

- 13- عيد بلع، "التداولية البعد الثالث في سيميوطيقا موريس"، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 66ع، ربيع 2005.
- 14- فرانسواز أرمينكو، المقاربة التداولية، تر(سعيد علوش)، (1986)، ط1، مركز الإنماء القومي، لبنان.
- 15- فيليب بلانتييه، التداولية من أوستن إلى غوفمان، تر(صابر الحباشة)، (2007)، ط1، دار الحوار، (سوريا).
- 16- ماجد محمد حسن، "الفلسفة البراجماتية"، الحوار المتمدن، ع 816 تاريخ 2004/4/26، موقع الحوار المتمدن على الرابط: <https://www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=17424>
- 17- مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي، (2005)، ط1، دار الطليعة، (لبنان).
- 18- نوازي سعودي أبو زيد: في تداولية الخطاب الأدبي، المبادئ والإجراء، (2009)، ط1، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، (الجزائر).

19- Elizabeth, Black. (2006). Pragmatic Stylistics, Great Britain, Edinburgh University Press p1(Introduction).